اختلاق على يد البيض

خير ما نبدأ به هذا الفصل هو السؤال الشهير الذي طرحه جان جينيه Jean Genet في مقدمة مسرحيته *Les Nègres* [الزنوج]: "ما الأسود؟ وقبل ذلك، ما لونه؟".

والحقيقة أنه بعد شيطنة القطط السوداء، وسواد الشيطان، والغربان، والساحرات في أسمالهن السوداء، والموت الأسود، وسواد النفس؛ كان لا بد لنا، نحن الذين ندّعي أننا بيض أوروبا الغربية، من اختلاق أن معظم سكان أفريقيا يُشكّلون بداهةً "عرقاً" أدنى، مصيره العبودية، ثم السخرة للاحتلال الاستعماري لمجرّد كون هذا العدد الهائل من السكان "سوداً". وباسم هذا اللون المزعوم وحده، نُقلت الملايين من البشر مثل الماشية إلى الجانب الآخر من المحيط، مقيّدين بالسلاسل داخل عنابر السفن؛ الأمر الذي أدى إلى موت عدد كبير منهم خلال عمليات النقل. أمّا الناجون فقد

بيعوا لملّاك الأراضي الأثرياء، وعملوا في خدمتهم في شروط مماثلة تماماً لشروط العبودية القديمة. والحاصل أنّ مدناً فرنسية كبرى، كانت متخصصة في عمليات النقل هذه، مثل بوردو ونانت، تدين بازدهارها لها. وفي العام ١٨٨٥، أي بعد "إلغاء العبودية" السطحي بوقت طويل، صرّح سياسي لا يزال موضع احترام "اليسار" حتى اليوم، وهو جول فيري Jules Ferry: "أكرّر أن الأعراق المتفوّقة تمتاز بحقوق تبعاً لما عليها من واجبات. وواجبها الأول هو جلب الحضارة إلى الأعراق الدنيا...". وقد "جلبت إليها الحضارة" بالفعل، على وقع ضربات السوط في المزارع.

ولقد كان المَخرَج الوحيد والأكثر اعتدالاً بالنسبة إلى الغالبية العظمى من الأفارقة المستعمرين، والمتاح لقلة قليلة منهم، هو أن يُصبحوا خدماً للمستعمِرين. فحصل كل مستعمرٍ على "صبيِّه"؛ أليس هذا أمراً منطقياً؟ فحامل الحضارة يستحقّ أن يُخدم، أليس كذلك؟ وحتى اليوم، يُخاطر عدد كبير من الأفارقة بحياتهم للوصول إلى أوروبا، لماذا؟ للعمل في البناء أو غسل الصحون للرجال، وفي الخدمة المنزلية أو حضانة الأطفال للنساء. أي نعم! فإما أن تكون "أدنى" - لأنك أسود - أو لا تكون.

وفي الولايات المتحدة؛ هذا البلد الديموقراطي الشهير

الذي لا يزال يقود الغرب، أصبحت ظاهرة العبودية من الضخامة (أكثر من ثلاثة ملايين من العبيد في العام ١٨٦٠) إلى حدٍّ استدعى معه إلغاؤها القانوني حرباً أهلية دامية راح ضحيتها أكثر من ٨٠٠ ألف إنسان في منتصف القرن التاسع عشر. إلا أن هذا الإلغاء لم يُنجَز من دون أن يخلّف وراءه تمييزاً قوياً في الميادين جميعها، فضلاً عن عنصرية كامنة ومتأصلة إلى درجة أصبحت فيها "المسألة السوداء" أشبه بجرحٍ لا يندمل في المجتمع الأميركي. كل ذلك ورئيس الولايات المتحدة "أسود"! هكذا، أصبحت صفة "الأسود" بالنسبة إلى الإنسانية صفةً ملعونة ووصمةً راسخة، وبالتحديد خلال الانتصار الاقتصادي والعسكري لـ"البيض".

وقد كان هذا التدبير المتجذّر في مخيال الألوان، ولا يزال، من القوّة والفاعلية في التسويغ الخبيث لأسوأ الشرور، حدّ أن الأوروبيين ومنتجاتهم الاستعمارية في جميع أنحاء العالم، قد وضعوا تدرجاً لونياً هرمياً للإنسانية جمعاء: في القمّة يتربع العرق الأبيض، عرق الغزاة الاستعماريين. ثمّ يأتي الصفر، الأقل شأناً بالتأكيد، لكنه الأكثر تعقيداً و"غموضاً" وعِنداً، والأصعب سيطرة. وبعدهما يأتي الهنود الحمر، الذين أبيدوا عن بكرة أبيهم على يد المستعمرين اليانكيين، لذا فلننسَ

أمرهم. وفي القاعدة يقبع السود، الزنوج. تصفحتُ عندما كنت طفلاً موسوعة لاروس المصوّرة التي يعود تاريخها إلى الثلاثينيات، أي إلى الأمس القريب. ووقعت فيها على مقالة مصحوبة برسوم توضيحية جازمة "تُبرهن" على أن جمجمة الأسود تقع في منتصف الطريق بين جمجمة القردة العليا وجمجمة الأبيض.

والمَعْلَم الأبرز لهذه القضية برمّتها هو بلا شك القانون الأسود، ذو التسمية الموفّقة، والذي وضعته الإدارة الملكية لفرنسا القرن السابع عشر بغية تنظيم العبودية في الممتلكات الفرنسية في منطقة البحر الكاريبي. وبخلاف ما يُقال في شأنه في بعض الأحيان، فإن هذا القانون، الذي يُعدّ فظيعة من فظائع العبودية بطبيعة الحال، متقدّم مع ذلك قياساً بقاموس لاروس الجمهوري في الثلاثينيات. إذ على الرغم من إقراره العبودية وطابعها الوراثي، فإنه وصم ما سمّاه "التحيّز للون"، أي أطروحة الدونية المتأصلة لدى السود، معلناً أن الأسود، ما إن يُعتق، حتى يتمتع بالحقوق نفسها التي يتمتع بها الأبيض. ومن هذا المنظور، نرى كيف أزاحت العنصرية الاستعمارية الحديثة، المناهضة للعبودية من حيث المبدأ، شكلاً وضيعاً من العلاقة الاجتماعية المطبوعة باللون (يمكن شراء إنسان تبعاً للونه فيصبح ملكاً لآخر) ووضعت

مكانها علاقةً مصبوغة بأساس بيولوجي، وهي العنصرية، الأكثر وضاعةً من وجهة نظري من الأولى (يُصبح الإنسان، بحكم لونه الأسود، أدنى مرتبة من الأبيض تبعاً لطبيعته وليس لمكانته الاجتماعية).

يمكن أن يأخذ التصدّي لهذا الوصم الهرمي لجزء من الإنسانية تبعاً للونه المفترض - الأسود بالمناسبة - شكلين متمايزين.

يقوم الأول على تصديق دور الألوان في هذا الشأن. فيؤكّد أولاً أنّ جزءاً من الإنسانية أسود في واقع الحال، ثم تُلغى أو تُقلب تراتبية القيم: السود مساوون تماماً للبيض أو لأي شخص آخر؛ أو حتى: السود أكثر جمالاً وقوة وذكاء وانسجاماً مع الطبيعة، وإثارةً جنسية ومرونة وقِدماً، وأصحاب نظام رمزي أشد غنىً، وأكثر شاعرية... وأكثر... وأكثر... من البيض. باختصار: "الأسود جميل"[1].

أمّا الثاني فيقوم على نفي أن يكون للون أي علاقة مع أي منظومة من شأنها أن تمنح القيمة أو تنتقصها. وهو الأمر الذي يعني أن أي حكم عام يتناول "مجتمعاً" مزعوماً على أساس اللون، هو حكم مستحيل من الناحية

---

١ بالإنكليزية في النص الأصلي.

المنطقية، سواء أكان سلبياً أم إيجابياً. وعلى الرغم من كون اللون تحديداً موضوعياً، فإنه ينبغي أن يظلّ من دون أي امتداد رمزيّ.

من جهتي، أستطيع تقديم نسخة أشد راديكالية من التوجّه الثاني. فمع قبولي بالاستتباعات العالمية لهذا التوجّه، فإنني أذهب إلى أبعد من ذلك: لا توجد حتى أي موضوعية للحكم القائم على اللون. في الواقع، لا يمكن تخصيص أي لون لإنسان بعينه، لا الأسود؛ بطبيعة الحال، ولا الأبيض أو الأصفر، أو أي هوية لونية كانت. لا يمكننا أن نحمل السواد على فرد، ونضعه في فئة "السود"، إلا بارتكاب تخمين فظّ وغير مفيد.

كان للأطروحة الأولى، في شكلها الأشد راديكالية، شعراؤها ومدّاحها، وبخاصة بين العام ١٩٣٠ ونحو العام ١٩٨٠. أطرى هؤلاء على ما أطلقوا عليه آنذاك اسم "الزنوجة"، أي التوكيد الإيجابي على واقع كون المرء أسود، منظوراً إليه بوصفه محرّك البشرية الأفريقية، ودافع ترحيل جزء منها إلى أمريكا في آن. مجمل القول: لقد تغنّى هؤلاء بعظمة الأسود.

وما زال الجميع يسمع، للأسف، أصواتاً ترثي العيوب والجهل والتأخر، وبكلمة واحدة الهمجية التي لا يزال لدى

البيض وقاحة نسبها إلى مَن يُفترض أنهم سود أفريقيا. وقد سمعنا في الآونة الأخيرة ساركوزي Sarkozy؛ هذا الصبي الأمي، من برجه العاجي الأبوي الاستعماري، يُحاضر في الأفارقة بكل وقاحة ويُحدّثهم عن بقائهم "على هامش التاريخ"! أي نعم، جميع هذه "البيّنات" التي تفوّه بها البيض خلال قرون عن السود المفترضين، وجميع هذه الكليشيهات قد قبلَ بها تيار الزنوجة بوصفها - ومن دون حتى تجشم عناء مناقشتها وفصل الصالح منها عن الطالح - الركيزة التي يمكن أن يؤسَّس عليها الانتماء غير المشروط والأنموذجي للسود إلى تاريخ البشرية الماضي والحاضر. ومن بين هؤلاء الشعراء نجد العظيم إيميه سيزير Aimé Césaire الذي أعطى لهذه الرؤية أشدّ لهجاتها:

زنوجتي ليست صخرة، صَمَمُهَا
يَثِبُ على صخب النهار
زنوجتي ليست وَدَقَة
لمياه ميتة
فوق عين الأرض الميتة
زنوجتي ليست برجاً ولا كاتدرائية
إنها تغوص في لحم الأرض الأحمر

تغوص في لحم السماء المتقدة
إنها تثقب الاكتئاب المعتم في صبرها المستقيم.[1]

هاهنا نرى كيف أن "الصبر المستقيم" يجعل من الأسود، تبعاً للزنوجة، الشاهد الأرضي الأساس لما يعنيه الانتماء إلى الإنسانية. لكنّ آخرين في الولايات المتحدة خصوصاً قد رأوا، خلافاً لذلك، أن نفاد الصبر الشديد، والشره لاتخاذ فعل مباشر، فضلاً عن الثوران البهي المصاحب له، كانت ولا تزال الوسيلة التي تمكِّن السود من النأي بأنفسهم عن مقولات الغرب المستبد. أطلقت على حركات تلك الحقبة أسماء مثل "حزب الفهد الأسود"، وهي تسمية تندرج على الفور في ديالكتيك الأسود: فالفهد الأسود يُعبر عن الجمال الحيواني نفسه، لكنه أيضاً المفترس الأكثر مرونة وضراوة، يجول ليلاً في أحلام البيض الباهتة. والحاصل أن الأسود يفخر بسواده كلياً أمام الأبيض، ويستطيع أن يطمح بتفوّقه الأصلي.

من السهل فهم هذه التوجّهات: بما أن البيض وصفونا بالسود، فلمَ لا نقلب هذه التسمية على سلطتهم؟ يبلغ

١ من قصيدة بعنوان "القصيدة المضادة"، بترجمة الشاعر محمد بودويك.

ديالكتيك الألوان هاهنا أشدّه، والأسود الذي وُضِع مقولةً واصمة متأصلة في الهيمنة البيضاء، ها هم ضحاياه يستولون عليه ويتّخذونه رايةً لانتفاضتهم. وهكذا يُصبح الأسود بين أبيضين: الأبيض الذي اخترع الأسود بغية استعباده وعزله، والأبيض بوصفه مرمىً لاستقلال الأسود المنتفض.

هذه مكتسبات لا رجعة فيها في الستينيات والسبعينيات، كما أعادت تلك السنوات الحمر اختراع الأسود الثوري الذي سبق له أن خلق، في فضاء الثورة الفرنسية عام ١٧٨٩، صورته المجيدة وشبه النهائية في شخصية توسان لوفيرتور Toussaint Louverture. كانتِ هذه هي الحال في الولايات المتحدة الأميركية، كما رأينا للتو، وفي أفريقيا أيضاً التي تمكّن فيها جيل كامل من القادة الثوريين من الحديث عن شروط الحرية الحقيقية لشعوبهم المضطهدة: شأن لومومبا Lumumba ونكروما Nkrumah وإم نيوبيه Um Nyobé وأميركار كابرال Amilcar Cabral وآخرين. وقد اغتيلوا جميعهم، أو أطيح بهم على يد المخابرات السرية للقوى الاستعمارية، أو جيوش التدخل، أو مرتزقة القادة الدمى. لكننا استطعنا مع ذلك، من الفضاء الواصل من توسان لوفيرتور إليهم، التعلّم أن "الأسود" لا يعني العبودية والاسترقاق المنزلي والممالأة.

ما مِن شكّ في أن علينا اليوم تجاوز ذلك. أو بالأحرى،

علينا أن ننتقل إلى فضاء آخر. والحقيقة أنه في العمل السياسي، وبصرف النظر عن تعبير "القوة السوداء"، لم تكن الرؤية المهيمنة عند السود الأميركيين المتشددين، مثل توسان لوفيرتور والقادة الثوريين في أفريقيا، رؤية عنصرية تمييزية. لا شك في أنها تضمّنت الحاجة المؤقتة إلى منظمة مستقلة مؤلفة من السود، ولا وجود للبيض فيها. لكن ذلك كان بغية الدلالة على القطيعة فقط، واجتثاث بقايا عقلية الخضوع لدى السود، وتعويدهم على مهام القيادة والفكر التي تتطلبها المؤسسة الثورية. وفضلاً عن ذلك، فقد كان العمل الموحّد مع المنظمات ذات الأغلبية "البيضاء" هو القاعدة بالنسبة إلى الغالبية. وخير مثال على ذلك المنظمة "البيضاء" الأكثر راديكالية، وهي منظمة "رجال الجو" (Weathermen)، التي مدّت يد العون من وقت لآخر لـ"الفهود السود". لذلك يمكن القول بأنّ تحلّلاً تدريجياً لديالكتيك السود/البيض لصالح نظرة سياسية شمولية هو أمر قائم بالفعل، على الرغم من أن الدرب لا يزال طويلاً طبعاً، ويستلزم فترة زمنية طويلة يستعيد فيها السود قدرتهم على الوجود من دون تبعية، ومن دون الاضطرار إلى محاكاة أشكال الهيمنة البيضاء وطقوسها.

مختصر القول: إن التوجّه الأول المتمرّد، المرتكز على الزنوجة الفخورة بكونها كذلك، قد مهّد للتوجّه الثاني:

توجد بالطبع مجتمعات، ولا سيما المجتمع الأسود، لكن الحقوق ينبغي أن تكون متساوية. ففي التحليل الأخير، ينبغي للمساواة أن تنسحب على الألوان أيضاً. وهاهنا نجد مصدر قلق أميركي نوعي، فالمجتمع عبارة عن خليط من الجماعات، العرقية والجنسانية والملونة والمهنية والوطنية... وأفضل ما يمكن أن نطمح إليه هو أن تتعايش هذه الجماعات بسلام، وتمتلك حقوقاً واحدة. وعليه، فقد انتهى الأمر بالمسألة السياسية لتصبح مسألة قانونية، محوِّلة قضيةَ المساواة في الفعل والإبداع، التي كانت القضية النابضة في الستينيات والسبعينيات، إلى قانون ترعاه ما تُسمى الدولة الراعية، في حين يستمر وجود الألوان تحت عنوان "الاختلافات الثقافية" بوصفها محور اهتمام أبوي في دراسات ما بعد الاستعمار الأكاديمية.

من جهتي، أعتقد أن هناك حاجة إلى القيام بخطوة أخرى، واعتماد النسخة "الصعبة" من التوجّه الثاني. فيصبح المبدأ: وضع حدّ لتوظيفات الألوان جميعها في أشكال المداولات والإبداع الجماعي جميعاً. وعلينا أن نعلن بصورة نهائية وقاطعة، أن على كلّ سياسة تحرّرٍ أن تفضّ رابطتها بالألوان. وينطبق ذلك، بطبيعة الحال، على مستوى المعايير والتسلسلات الهرمية كما على مستوى الموضوعية.

وعن سؤال جينيه "ما هو لون الأسود؟"، تنبغي الإجابة بأنه، فيما يخص الإنسانية بأسرها، لا وجود لألوان في الواقع. واللون الأبيض لا وجود له، تماماً كحال اللون الأسود.

حاول أن تُحدّد لون شخص ما، هل الإنسان الأبيض أبيض بحق؟ بالطبع لا! كأبيض أعرف المهرّج الأبيض، صاحب الرأس المغطّى بمسحوق الطحين؛ وهو تمثيل للحكمة غبيّ بعض الشيء إذا ما قورن بصديقه "الأحمق" (l'auguste) صاحب الأنف الأحمر الكبير. والواقع أننا ندعو "أبيض" شخصاً أكثر شحوباً من الشخص الذي يُفترض أنه أسود اللون، مروراً بتدرجات لانهائية. فنتدرج، مثلاً، من السويديين إلى الموريتانيين، مروراً بالآسيويين. زد على ذلك أن هناك مِن التاميل (tamouls) مَن هم أشد قتامة بكثير من عدد من الأفارقة، ولا نُدرجهم في فئة السود. وعدد من الأفارقة أصحاب بشرة داكنة من دون أن نستطيع القول بأنهم سود، وعدد من الأوروبيين هم من القتامة لدرجة أنه من غير المنطقي القول بأنهم بيض؛ كما يوجد من بين الآسيويين، الأبعد ما يكونون عن الصفرة (إذا سألتني مَن يكون أصفر؟ أجيبك: المريض بالكبد، ربما)، مَن هم أصحاب بشرة فاتحة أكثر من عديد من الأوروبيين الجنوبيين، وأشد البشر سواداً لا نراه كذلك لدى مقارنته بصبغة سوداء أو قطعة من الفحم.

والحق يُقال، إن خصيصة الإنسان هي أن يكون طبعاً ذا بشرة غامقة إلى هذا الحدّ أو ذاك، وبتدرّجات دقيقة لامتناهية، ولكن من دون أي لون محدّد. لماذا؟ لأن الإنسان لا يكسوه شعرٌ أو ريشٌ أو قشرة كيتينية، ولأنه الحيوان الوحيد العاري طبيعياً، ولأن بشرته تصطبغ بصبغات متغيرة من دون أي لون ثابت مميّز لها.

وهذا هو الفارق اللافت على المستوى المرئي المحض بين الحيوان البشري والقردة العليا. يمكن لغوريلا جالسة تلعب بالعصا أن تشبهنا لجهة الوضعية والحركات بشكل لا يُصدق إذا نظرنا إليها من بعيد. ولكن يمكن القول عن هذه الغوريلا بأنها سوداء، إذ إن الفروة التي تغطي جسدها من الرأس حتى أخمص القدمين سوداء. وبالمثل، يُشبه إنسان الغاب رجلاً عجوزاً باستثناء أنه مغطى بالكامل بالفراء الأحمر.

والحاصل أن العلامة الموضوعية الأبرز في الحيوان البشري هي غياب اللون، وبخاصة أنه من المحال أن يكون أسود، أسود فعلياً، مثلما من المحال أن يكون أبيض، ناهيك من أن يكون أصفر أو أحمر (إلا في حال ضربة شمس في مرحلة متقدّمة).

كل ما هنالك أن الكائنات البشرية تتدرج من سيماء فاتحة

شديدة البياض مع بعض الرقش، إلى سيماء داكنة قليلة السواد من دون أن يستطيع أي تصنيف مضاهاة اللاتناهي العجيب لتدرجات الأصباغ هذه.

وما تسميات السود والصفر والحمر، وأكثر من ذلك، البيض، سوى دعائم "موضوعية" مخادعة لتصنيفات قمعية، وحسابات رمزية مريبة، وأحكام مهينة، أو إعجاب بالنفس مخزٍ.

لذلك علينا أن نمسك عن كل ترميز أو تقدير جماعي، وعن كل محاولة سياسية وحكم عام يرمي إلى تضمين أي لون كان في عدّته.

ففي النظام العالمي الذي تتطلع إليه الإنسانية، ليس للأسود والأبيض أي حق في الوجود. وجملة القول: الإنسانية، بوصفها كذلك، عديمةُ اللون.

لماذا يقترن الأسوَد بالحزن والحداد والشرّ؟

ما سببُ ارتداء رجال الدّين الزيَّ الأسود؟

وماذا وراء مصطلحات مثل «المادة السوداء» و«الثقب الأسود» و«الفكاهة السوداء»؟

يتعمّق الفيلسوف الفرنسي ألان باديو في رموز الأسوَد كالخوف والأناقة والبؤس والإبداع والرّغبة، ويتأمّل تجلّياته في الرسم والموسيقى والسياسة والميتافيزيقيا... كما علاقته بالألوان الأخرى.

في الواقع، لم يكن الأسوَد متوهّجاً من قبلُ كما في هذا الكتاب.

ألان باديو فيلسوف وروائي ومسرحي فرنسي من مواليد المغرب، وأستاذ فخري في المدرسة العليا للأساتذة. تُرجمت كتبُه إلى لغات عدّة، ويُعدّ من أبرز وجوه الفلسفة في عصرنا الحاضر.

ISBN 978-614-03-2281-3

9 786140 322813 >

DAR AL SAQI

دار الساقي

www.daralsaqi.com